يسوع وإبليس وجهًا لوجه
دراسة كتابيّة وتأمّل في مر ١:٢١–٢٨

ما إن دعا يسوع تلاميذه الأربعة، سمعان وأندراوس ويعقوب ويوحنّا، ليتبعوه (مر ١:١٦–٢٠) حتّى بدأ يعمل. من دونهم لم يأتِ بأيّ عمل، ولم يقل أيّ قول. من الآن وصاعدًا تأتي الأفعال بصيغة الجمع، كالفعل الذي نقرأه هنا في بداية النصّ: "**ودخلوا كفرناحوم**" (آ ٢١). رِجلهم على رِجله، يرافقونه أينما راح. المكان الأوّل الذي دخلوا إليه هو المجمع، المكان الرئيسيّ في حياة كلّ يهوديّ. إذًا، من الشاطئ إلى المجمع. هناك سيكتشفون أوّل وجه للمعلّم الجديد، إنّها النظرة الأولى: إنّ الذي دعاهم بكلمة وسحرهم بسلطانه، يتكلّم في المجمع "كمن له سلطان". ومع الكلمة والتعليم، رأوا قوّة سلطانه على الأرواح النجسة. لقد سمعوا الروح يعلن أنّ ذاك الرجل، الذي دعاهم منذ برهة، إنّما هو "قدّوس الله".

عندما لبّى التلاميذ الأربعة نداء يسوع باتّباعهم إيّاه، أخذوا على عاتقهم المصير المجهول الذي ينتظرهم بمسيرهم خلف المعلّم الذي لم يُظهر بعدُ من يكون، وما هو مخطّطه، وما هي قدرته... إكتشاف المعلّم بدأ إذًا، والمسيرة انطلقت، والمغامرة لابدّ منها.

بنية النصّ

لا يصعب على القارىء النجيب أن يلاحظ بوضوح أقسام النصّ الثلاثة:

١. تعليم وردّة فعل الشعب (آ ٢١–٢٢).
٢. طرد روح نجس من رجل (آ ٢٣–٢٦).
٣. ردّة فعل جديدة تجاه التعليم والمعجزة (آ ٢٧–٢٧).

هناك إذًا ردّتا فعل تتوسّطهما معجزة. هناك بالطبع تطوّر بين موقفَي السامعين، تطوّر فرضه ما رأوه من سلطان يسوع على الأرواح النجسة. المواجهة المباشرة بين يسوع وذاك الروح تحتل لبَّ النصّ ومركز الثقل فيه .

القسم الأوّل: تعليم وردّة فعل الشعب (آ ٢١-٢٢)

يُقسم بدوره إلى قسمين صغيرين: ١) تحديد المكان والزمان؛ ٢) ردّة فعل السامعين على تعليم يسوع[١] .

المكان: كفرناحوم

المكان هو **كفرناحوم** (آ ٢١)، وهي منطقة من الجليل، بالقرب من بحيرة طبريّة. فيها يقع بيت بطرس وأندراوس، على مقربة من المجمع اليهوديّ المذكور هنا، البيت الذي تحوّل فيما بعد إلى كنيسة كما دلّت على ذلك الحفريّات الأثريّة. كان هذا البيت، وبالتالي كفر ناحوم، مركز انطلاق ليسوع وجماعته إلى الرسالة والتبشير. منه ينطلقون وإليه يعودون للمبيت في الليل. لذا لكفرناحوم في قلب يسوع معزّة خاصّة، ولها حصّة الأسد من عمله التبشيريّ، حتّى إنّه فضّلها على الناصرة موطنه. هذا ما نستدلّه من قول يسوع نفسه أمام مواطنيه في الناصرة: "لاشكّ أنّكم تقولون لي هذا المثل: "يا طبيب اشفِ نفسك، فاصنع هنا في وطنك كلّ شيء سمعنا أنّه جرى في كفر ناحوم" (لو ٤:٢٣).

لكن بالرغم من هذه النعمة المعطاة لكفرناحوم، يبدو أنّ كثيرين من أهلها لم يشاطروا بطرس وأندراوس موقفهما الإيمانيّ، بل ظلّوا بعيدين عن الانجيل وعن التوبة. لهذا استحقّت التوبيخ الشديد من يسوع: "وأنتِ يا كفرناحوم، أتُراكُ ترفعين إلى السماء؟ سيُهبط بك إلى مثوى الأموات. فلو جرى في سدوم ما جرى فيك من المعجزات، لبقيتْ إلى اليوم. على أنّي أقول لكم: إنّ أرض سدوم سيكون مصيرها يوم الدينونة أخفّ وطأة من مصيرك" (مت١١:٢٣-٢٤).

الجدير بالذكر هنا هو أنّ أغلب سكّان كفرناحوم، شأن بطرس وأندراوس، كانوا من صيّادي السمك أو من تجّار السمك، وذلك بسب قربها من بحيرة طبريّة. كانوا ذوي أطباع صعبة، بالرغم من طبيعتهم الطيّبة التي استقوها من البحر. يكفي أن نتأمّل طباع بطرس حتّى نفهم ما كان عليه الكفرناحوميّ من طبع حادّ وعفويّة. بالكاد استطاع يسوع أن يُروّضه بحسب منطق الإنجيل والحياة الجديدة التي دعاه إليها.

يا ليت أهل كفرناحوم استفادوا من ضيفهم الغالي، وعرفوا قيمة الذي اختار أن يسكن بينهم! كثير من الأحيان تكون الجوهرة في دارنا، ونحن، أهل الدار، أبعد الناس عنها وعن اكتشافها. هنا يخطر

---

[١] للتذكير نقول هنا إنّ القسم الثالث، الموازي لهذا القسم، يُقسم بدوره إلى قسمين متشابهين ولو بطريقة عكسيّة: ١) ردّة فعل السامعين الثانية (آ ٢٧)؛ ٢) المكان والزمان (آ ٢٨).

ببالي مثلٌ حديث قد يُفهمنا حقيقة الأمر : ليست روما أقدس وأطهر مدينة على وجه الأرض، حتّى ولو توسّطها الفاتيكان واحتوت فيضًا من ذخائر الرسل والقدّيسين. فيها أيضًا، ككفرناحوم، أرواح نجسة!

الزمان: السبت

"**وما إن أتى السبت حتى دخل يسوع المجمع**" (آ ٢١)، هذا هو زمان النصّ. السبت هو يوم الربّ عند اليهود، إنّه أقدس أيّام الأسبوع عندهم. لا يعمل اليهوديّ فيه أيّ عمل يُذكر، لا هو ولا ابنه ولا امرأته ولا ضيفه ولا خادمه ولا حتّى حماره. الكلّ يستريح، كما استراح الله في اليوم السابع، بعدما خلق العالمَ في ستّة أيّام (راجع خر ٢٠:٨-١١). من هنا أتت التسمية العبريّة "شبّات"، من فعل "شَبَتَ"، أي سَبَتَ واستراح. في السبت يرتاد اليهوديّ المجمع ليصلّي ويسبّح الله ويسمع عظة مستوحاة من الكتاب المقدس.

أمّا المجمع فكان يُبنى عادةً خارج نطاق البيوت والسكن، بالقرب من نبع ماء . هو مركز القرية وقلبها. فيه يصلّي اليهوديّ ويتعلّم أيضًا التعاليم الكتابيّة والتقاليد الآبائيّة. الاسم القديم هو "مصلّى"، كما عند المسلمين اليوم. وهو يتألّف من قاعة كبيرة، فيها منبر عالٍ للقراءة ، وخزانة مزركشة تُحفظ فيها المخطوطات القديمة أو المهترئة. لا تقدّم الذبائح أبدًا في المجامع، فمكان تقديمها يبقى هيكل أورشليم. مهمّة الوعظ كانت منوطة برئيس المجمع أو بمن ينتدبه لذلك من الضيوف البالغين الراشدين والمتعمّقين في الكتاب، كحالة يسوع هنا[٢]. كان الواعظ يقرأ النصوص بالعبريّة، ويعظ بالآراميّة التي كان يفهمها عامّة الشعب.

كان يسوع إذاً محافظاً على واجباته الدينيّة كيهوديّ، وكثيرًا ما كان يوكل إليه التعليم وإلقاء العظة لما رأوا فيه من روعة الكلام وجدّة في المفاهيم. إذا رجعنا إلى النصّ اليونانيّ نتأكّد ممّا نقوله: وحده الفعل "يُعلّم" (ƒ*.∴*∀Φ6,<) هو مُعرب بصيغة الماضي المستمرّ (imparfait) بين كلّ أفعال الجملة التي هي بصيغة اسم الفاعل (participe présent). وصيغة الماضي المستمرّ تدلّ، كما نعلم، على عادةٍ ما، على عملٍ يتكرّر مرّات عدّة. قد يكون نصّنا هذا يصف اللقاء الأوّل بين يسوع وأهالي كفرناحوم من لقاءات متكرّرة.

[٢] راجع أيضًا لو ٤:١٤؛ أع ١٣:١٤؛ ١٤:١.

ردّة الفعل الأولى

ما يلفت الانتباه هنا هو أنّ مرقس لم يخبرنا عن محتوى التعليم الذي ألقاه يسوع على مسامع القوم في ذلك اليوم، لا بالتفصيل ولا حتّى باختصار[3]. لا يريد مرقس أن يصدم قارئه منذ البداية بمحاضرة طويلة أو بتعليم مستفاض. فالمسيرة، بالنسبة إليه، ما زالت في أوّلها، والمجال أمامه طويل كي يعرض أقوال يسوع وتعاليمه. لكن في البداية، يكفي بل يلذّ له أن ينقل لقارئه ردّة فعل الجمهور على أوّل أعمال يسوع. هكذا يلمّح مرقس بعض الشيء إلى جوهر تعليم يسوع، لكن من خلال ردّة فعل الجمهور: إنّه تعليم "**جديد**" يُلقى "**بسلطان**".

نوضّح أوّلاً أنّ يسوع لم يكن كاهنًا في نظر اليهود، ولا من الكتبة المختصّين بدراسة الشريعة، ولا من الفرّيسيّين المتمكّنين من الكتب المقدّسة وتقاليد الآباء. لقد كان، كما نقول اليوم، رجلاً "علمانيًّا" ويهوديًّا تقيًّا، لا سلطان له رسميًّا ولا رتبة أو درجة كالكتبة والكهنة، تعطيه سلطانًا وقيمةً في نظر سامعيه. بكلمة، دخل يسوع المجمع مثل غيره، لكنّه خرج منه إنسانًا آخر. لماذا؟ لأنّ سلطانه هو منه وفيه، أي أنّه مستمدّ من شخصه هو، وليس من موسى، ومن تعليمه هو وليس من الشريعة[4].

تعليمه أذهل الناس ذهولاً كاملاً. له وقع كوقع الأعجوبة الخارقة. غالبًا ما نترجم هنا "**وأُعجبوا بتعليمه**" (آ ٢٢). لكنّ الفعل اليونانيّ المستعمل "إكْسْبليسّو" (ƒ>B8ZΦΦT) هو أقوى بكثير، وهو فعل مركّب من "إكس" (<ƒ) و"بليسّو" (B8ZΦΦT). "بليسّو" وحدها تعني "أكل صفعة"، أي انذهل أمام شيء مبهر. أمّا "إكس" فتعني، كما في الفرنسيّة، ذلك "الخروج" من الذات. الفعل كلّه يعني إذاً ذلك الانبهار التامّ الذي أخرج السامعين عن طورهم. كلام يسوع صدم الحاضرين، صفعهم، سحرهم، بهرهم، لأنّ يسوع كان يتكلّم بسلطان، هو من لا سلطان له، وليس مثل الكتبة الذين يملكون رسميًّا كلّ سلطان موسى.

هؤلاء كانوا رجال الشريعة والحرف، لأنّ سلطانهم من الشريعة والحرف. هذا ما يدلّ اسمهم عليه في اليونانيّة "غرامّاتيس" (ΔΑ::Αϑ,℘H))، وهو يأتي من كلمة "غرامّا" (Δς::Α))، ومعناها الحرف والكتاب. كانوا يشكّلون طبقة متميّزة وظيفتها الأساسيّة هي نقل الكتاب المقدّس وشرحه، بالإضافة إلى العمل التشريعيّ أي سنّ القوانين المستوحاة من الكتاب، والعمل القضائيّ وهو إصدار الأحكام حسب ما تقتضيه الشريعة، والعمل التعليميّ أي تعليم الناس وتربيتهم حسب تعاليم التوراة. من هنا كانوا معلِّمين بامتياز يتمتّعون بسلطان على الناس في مجامع القرى والضيع. هذه السلطة الرسميّة كان

---

[3] على عكس لوقا الذي أورد عظة يسوع الأولى في مجمع الناصرة (راجع لو ٤:١٤-٣٠).

[4] Cf. Jean DELORME, « Prise de parole et parler vrai dans un récit de Marc (1,21-28) », in P. BOVATI – R. MEYNET, *Ouvrir les Ecritures*, Lectio Divina 162, Paris 1995, 183-185.

يفتقدها يسوع، فسلطته كامنة في شخصه. هو كابن الله سلطته "من فوق"، من تعليمه هو لا من شريعة غيره.

كلمات ليست كالكلمات

السرّ كلّه يكمن في كلام يسوع، فكلامه يختلف عن كلّ كلام. لم يردّد يسوع كلامًا معروفًا ومبتذلاً ضاقت به الآذان ذرعًا. تعليمه هو صنع يديه وعقله وشخصيّته. يسمع الناس منه كلامًا غير الكلام الذي يسمعونه من كَتبتهم ومعلّميهم، من كتبهم وجرائدهم، من رجال السياسة أو من جهابذة الفكر... كلام يسوع يدخل الأعماق، يبهرها، يخرجها من ذاتها ويسحرها، يضعها أمام ذاتها كما هي، يعرّيها حتّى يظهر فرحها أو حزنها، قبحها أو جمالها، خطيئتها أو فضيلتها...

نحن البشر نقدر أن نكذب على من هم مثلنا، ونستر ما يعيبنا عن الناس ولكن ليس عن الله. نحن منكشفون أمام الله كحبّة الرمل في الصحراء أمام الشمس، وكورقة الخريف في مهبّ الريح. أمام البشر يمكننا استعمال مئة قناع وقناع، أمّا أمام كلمة الربّ فنحن عراة عُري العروس أمام عريسها. أمام الله نظهر على حقيقتنا. إن كان فينا جمال فسيسطع، وإن كان قبح فسيُفضح. إن كان فينا تقوى فستتألّق، وإن كان رياء فسينكشف. إن كان فينا ملاك سيظهر، أو روح نجس فسيُصرَع، تمامًا كما حصل ذلك اليوم في مجمع كفرناحوم. كلمة الله ذات السلطان استفزّت الروح النجس المعشّش داخل ذلك الإنسان، فظهر وراح يهاجم ويقاوم ويصيح في وجه يسوع، لكن في النهاية كان مصيره الهلاك.

كلام يسوع كلام السماء، فيه سلطان السماء، وليس كلام أرض أو من فم أهل الأرض. كلامه لا تكلّف فيه ولا رياء، لا لفّ ولا دوران. إنّه كلام لا يحابي الوجوه ويقبّل اللحى، لا يسعى لإرضاء أحد ولا يساير أحدًا، لأنّه كلام حقّ. لا يستطيع أحد أن يقيم عليه خطيئة، لا عليه ولا على صاحبه. إنّه كلامٌ مُرسَل، مرسلٌ لأناس، لأشخاص، بل لكلّ فرد. لا يُقال للهواء أو للفراغ، ولا يُقال لأجل أن يُقال، أو لتسجيل موقفٍ ما، أو منعًا لأيّ كبت في الشعور.

إن تكلّم الله في يسوع فلكي يبعث للعالم برسالة، سواء للبشريّة جمعاء أو لكلّ شخص منها بمفرده. للحاقد، مثلاً، كلام الله دعوة إلى الحبّ، وللزاني كلام الله دعوة إلى الطهارة، وللحزين دعوة إلى البسمة، وللبائس دعوة إلى الرجاء. للمضطهَد كلام الله تعزية، وللمضطهِد دعوة إلى الرأفة. لمن يكذب ويسرق كلام الله وجع ضمير وحجر عثرة، أمّا لخائف الربّ ومتّقيه فهو تاج وإكليل غار. كلام الله لأناس هذا الدهر جنون وبَلَه، أمّا لأبناء الملكوت فهو فخر ومجد.

كلمة الله لا تخرج من فم الله هباءً، للاشيء، فهي تفعل فعلها في النفوس. تلقاءها لا يمكن أن أكون كالعدم، لا يمكن إلاّ أن آخذ موقفًا، أن أقرّر، إمّا معها وإمّا عليها، إمّا إيجابيًّا بقبولها أو سلبيًّا برفضها. يقول النبيّ أشعيا على لسان الربّ: "لأنّه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولايرجع إلى هناك

دون أن يروي الأرض ويجعلها تُنتج وتُنبت لتؤتي الزارع زرعًا والآكل طعامًا، فكذلك تكون كلمتي التي تخرج من فمي، فلا ترجع إليّ فارغة بل تتمّ ما شئت وتنجح فيما أرسلتها له" (أش ٥٥:١٠-١١).

من الضروريّ هنا أن نسأل ذواتنا: هل ما زلنا نجد كلمة الله جديدة وجذّابة، أم أنّها فقدت كل سحرها وتأثيرها على حياتنا؟ هل تعليم يسوع كُتب ليبقى مدوّنًا في الكتب أم لكي يُعاش كلّ يوم؟ هل تعليم يسوع أُلقي ليكون على قياسنا وليدغدغ آذاننا، فنقبل منه ما يعجبنا ونرذل ما يوبّخ ضميرنا؟ هل تمرّ الأعياد والأصوام والقداديس وشبح الأيادي وتلاوة المسابح والزيارات والحجّ ونظلّ كما نحن من دون أيّة رغبة في التطوّر والتعمّق والغوص أكثر فأكثر في حياتنا مع المسيح والتزامنا معه؟ لماذا، مثلاً، تبقى أغلب كنائسنا خالية من الشباب؟ وإذا وُجدوا، فيكونون قلّة؟

المسؤوليّة تقع أيضًا على الكهنة والرعاة، فهم إمّا أن يلقوا تعليمًا جديدًا بسلطان، وإمّا أن يبقوا، كالكتبة، يردّدون ما يقوله غيرهم أو ما يجترّه المجتمع. على الكنيسة، التي هي "أمّ ومعلّمة"، أن تقول دائمًا شيئًا جديدًا ومختلفًا عن التعليم الشائع. بكلمة، أن تظلّ ضمير المجتمع. حتّى لو تضايق الناس من كلام يسوع واستصعبوه ووجدوه باليًا ومزعجًا، فيجب أن يُقال، ويُقال عاليًا لأنّه يبكّت الضمائر. هو نور يفضح الأعمال المظلمة، وهو نار يحرق ما هو فاسد: "كلمة الله لبعضنا، يقول المطران جورج خضر، هي نور، ولبعضنا هي نار ودينونة".

القسم الثاني: طرد روح نجس من رجل (آ ٢٣-٢٦)

المواجهة

بعد ردّة الفعل الأولى تأتي المواجهة. فجأةً يظهر رجل في المجمع يقول الإنجيل إنّ فيه روحًا نجسًا، أي إنّه مسكون بروح شيطانيّ. هكذا رجال يظهرون كثيرًا بين صفحات العهد الجديد في مواجهة مع يسوع. هناك حالات يكون فيها الروح النجس المسكون به الرجل جماعة كثيرة وليس روحًا واحدًا (مر ٥:٩). يدلّ هذا على كثرة الشرّ وعلى ملء النجاسة. نحن نعلم أنّ العقليّة القديمة كانت تنسب إلى الأرواح النجسة كلّ مرض مستعصٍ يصعب على الطب شفاؤه. وليس هذا من باب الصدفة، بل كان له ما يبرّره: كان المرض أو الألم يُعتبران نقصًا يناقض نيّة الخالق في خلقه، وعلامةً على سيطرة إبليس على الانسان. لذلك كلّ مريض هو إنسان خاطىء، ومرضه هو عقاب إلهيّ على خطيئته أو خطيئة أبويه. لهذا تكثر نسبة الأشخاص الذين كانوا يُعتبرون ممسوسين بروحٍ شيطانيّ، وبالتالي تكثر عمليات التقسيم التي كانت مألوفة عند اليهود.

إنسان ممسوخ

والغريب في نصّنا هو أنّنا أمام مريض ممسوخ. ماذا يعني هذا؟ العبارة اليونانيّة المستعملة في الآية ٢٣ تُترجم حرفيًّا بـ"**رجلٍ في روحٍ نجس**"، أمّا في الآية ٢٦ فلدينا "**روح نجس في إنسان**". هناك إذًا شخصيّتان، ليستا منفردتين بل في جسم واحد وكيان واحد، والاثنتان في عدم انسجام تامّ[٥].

في نصوص أخرى نقرأ كيف يجرّ الروحُ النجس الانسانَ الساكن فيه إلى أن يعذّب نفسه بالضرب، وإحراق نفسه بالنار أو إهلاكها بالماء، أو تدنيسها بالعيش بين القبور (مر ٥:٢-٥). لا أحد يستطيع أن يقترب منه لأنّه لا يُضبط، ولا سيادة له على نفسه، فهو في هيجان دائم. هنا أيضًا لاحظوا الحيوانيّة في تصرّفات ذلك الإنسان الممسوس: إنّه في حالة صراخ دائم، وليس هناك من كلام. الله يتكلّم بل يخلق بكلمته (تك ١:٣)، أمّا الحيوان فهو في صراخ دائم وزعيق مستمرّ. في دخوله إلى ساحة المواجهة مع يسوع، وعندما طُرد أيضًا من فريسته، كان الروح في "**صراخ عظيم**" (آ ٢٦). صراخ وليس كلامًا، لأنّ بين ابن الله والروح النجس ليس من كلام، وبين الخير والشرّ ليس من حوار. فلا بدّ لذلك الروح أن يخرس وأن يُزجَر، حتّى ولو أعلن واعترف بأنّ يسوع هو قدّوس الله.

هوّة عظيمة

بين الله وإبليس هوّةٌ عظيمة ولا شيء مشترك بينهما. هذه هي أيضًا حالة يسوع مع ذلك الرجل الذي فيه روح نجس: الأوّل إنسان طبيعيّ وكامل البشريّة، والثاني رجل مزدوج الشخصيّة؛ الأوّل يعلّم بسلطان، والثاني لا يفعل إلاّ الصراخ؛ الأوّل يأمر، والثاني يطيع، الأوّل ينتمي إلى عالم الله، بما أنّه "قدوس الله"، والثاني إلى عالم النجاسة بما أنّه روح نجس؛ الأوّل يستطيع التواصل مع الله بسحرٍ وهدوء، أمّا الثاني فالتواصل مع محيطه معدوم كلّيًّا لأنّ صراخه يمنعه من ذلك، ومكانه الطبيعيّ هو بين القبور لا بين الأحياء.

من يتجذّر فيه روح الشرّ، لا يخلع عنه ثوب الألوهة فحسب بل ثوب الإنسانيّة أيضًا. يكفي أن ننظر إلى أعضاء تلك البدع الشيطانيّة لنراهم أنّهم أصبحوا أشباه بشر، لا بشرًا. أتساءل: أيّ قانون طبيعيّ وإنسانيّ محض يجيز للإنسان أن يؤذي ذاته وجسده، إن بالضرب أو بالسكر المفرط أو بحالة هستيريّة دائمة؟ أيّة شريعة بشريّة تجيز له إطلاق العنان لرغباته الجنسيّة من دون أيّ قيد أو شرط، أو أيّ احترام لجسد الآخر وحرمة نفسه؟ أيّ أدب اجتماعيّ أو قاعدة سلوكيّة تسمح له بأن يعيش في حالة صراخ وعويل ونتف شعر؟...

---

[٥] Cf. Jean DELORME, “Prise”, 187.

محاولة دفاع فاشلة

يعلم إذاً ذاك الروح أنّ مواجهته هي مع ابن الله نفسه، لذا يروح يدافع عن نفسه آخذًا موقف الهجوم: "**ما لنا ولك يا يسوع الناصريّ ؟ أجئتَ لتهلكنا؟ أنا أعرف من أنت: أنت قدّوس الله**" (آ ٢٤). المبادرة في الهجوم تأتي لا من يسوع بل من الروح النجس، هو من أطلق الرصاصة الأولى: ظهر فجأةً على مسرح الحدث بعد تعليمٍ ألقاه يسوع بسلطان وبعد انبهار سامعيه. هذا الظهور المفاجيء ذو دلائل كثيرة: كأنّ كلمة يسوع، أي كلمة ابن الله، فضحت الشرّ الكامن في ذلك الإنسان، استفزّته وكشفته، فراح يدافع عن نفسه هاذيًا. أمام كلمة الربّ تُفضح الخطيئة المستترة، حتّى ولو لبست ثوب لحمٍ ودم. أمام القداسة تبين الرذيلة مباشرة، وأمام الطهارة يتبدّى العهر للأعين. وجود البار يبكّت الأشرار ويُظهر فسادهم. يتطرّق سفر الحكمة لهذه النقطة ويصف تفكير الأشرار أمام الرجل البارّ: "ولنكمُن للبارّ فإنّه يضايقنا، يقاوم أعمالنا ويلومنا على مخالفتنا للشريعة. صار لومًا على أفكارنا وحتّى منظره ثقل علينا لأنّ سيرته لا تشبه سيرة الآخرين وسبله مختلفة" (حك ٢:١٢، ١٤-١٥).

في دفاعه عن نفسه يلجأ الروح إلى استراتيجيّات معروفة. نراه يخاطب يسوع مباشرة (أنظر إلى الضمائر: "أنا" و"أنت")، ويتمترس خلف موقع دفاعيّ لأنّ معركته هي معركة حياة أو موت: "**ما لنا ولك، يا يسوع الناصريّ؟**" (آ ٢٤). الجواب على هذا السؤال هو طبعًا سلبيّ: "ما من علاقة وما من شيء مشترك بيننا"، "أتركني وشأني"، "لك عالمك ولي عالمي"، "لاتتدخّل في شؤوني"... بكلمة، الروح يصدّ يسوع ويقفل أمامه الطريق منذ البداية. ولكي يسيطر على الوضع أكثر، سمّى الروح النجس يسوعَ باسمه الأرضيّ "يسوع الناصريّ"، والسماويّ "قدّوس الله". أن تدعوَ الخصم باسمه، في عمليّات التقسيم، عادةً، فهذا يعني أنّك تسيطر عليه، لأنّ في المعرفة سيطرة. في مكان آخر نرى يسوع يسأل الروح النجس عن اسمه، فيردّ أنّ اسمه "جوقة" (مر ٥:٩). لكنّ يسوع ما لبث أن انتهر الروح بشدّة وأخرسه، لأنّ هويّة المسيح لا تُعلن أبدًا من قبل شياطين، واسمه لا تدنّسه شفاه نجسة.

بعد هذا، يسأل الروح يائسًا: "**أجئتَ لتهلكنا؟**" (آ ٢٤). إنّه سؤال بلاغيّ، أي أنّ الجواب معروف مسبقًا: مصير الروح النجس هو الهلاك. هذه الانتفاضة لعالم الظلمة معبّرة جدًّا: لما أحسّ أنّ سلطانه قرب أن يتلاشى، انتفض ورفض أيّ تدخّل لعالم النور، لأنّ النور، كما يقول يوحنّا الرسول، يفضح الظلمة: "كلّ من يعمل السيّئات يبغض النور فلا يُقبل إلى النور لئلاّ تفضح أعماله، أمّا الذي يعمل للحقّ فيقبل إلى النور لتُظهر أعماله وقد صُنعت في الله" (يو ٣:٢٠-٢١).

مواجهات مستمرّة

الانتفاضة ذاتها تحصل في كلّ زمان ومكان في وجه ابن الله وتعليمه ومنطقه وطريقه. اليوم أيضًا هناك كثير من "الأرواح النجسة" التي تصرخ في وجه الله: "ما لنا ولك يا يسوع الناصريّ؟"، "لك

شؤونك ولنا شؤوننا"، "لك عالمك ولنا عالمنا"... ليس بالضرورة أن تنتمي هذه "الأرواح" إلى عالم الكائنات الروحانيّة، بل تتجسّد اليوم في أشخاص بشريّين يتباهون بإلحادهم، ويتفنّنون في صنع الشرّ. عالم اليوم يتبارى في صنع الخطيئة، ويتسابق على عمل الرذيلة، والفائز تنتظره الجوائز والأكاليل. ألا نلاقي كلّ يوم أمثلة على هذا؟ ألمْ نواجه أحيانًا انقلاب المقاييس والمعايير الأخلاقيّة، فيصبح "الأزعر" بطلاً، والسارق حامي الهيكل، وصاحب الرذيلة مثالاً يُحتذى به...

أمّا معنا، فقد لا تصل الأمور إلى هذا الحدّ السيّء، لكنّنا نعيش بمئة طريقة وطريقة خبرة الروح الخبيث هذا. قد نقول لله: سأعمل عملك، لكن دعني أعمل عملي، ولا تتدخّل في شؤوني؛ صلاة صلّيتها لك، وذبيحة قدّمتها، وصومًا صمته، ومسبحة تلوتها... هل لك عليّ بعد من واجب ولم أقمْ به؟ طبعًا لا، فدعني أعمل عملي على طريقتي. الأحد لك، جيّد، لكنّ السبت لي، ومن الاثنين حتّى الجمعة للعمل، إذا مرّرتُ كذبة هنا أو صفقةً هناك، شهوة هنا أو نظرة طائشة هناك... فما لك أنت؟ ألم أقمْ بواجبي معك؟ فتفضّل اخرسْ.

لا، ابن الله لن يَخرس، بل سيعمل دائمًا حتّى يُخرسَ فينا كلّ روح نجس. قد نصرخ ونتخبّط، ونرغي ونزبد، لكن يصعب علينا أن نقاوم دائمًا "المهماز" (أع ٢٦:١٤)، وأن نرفض النعمة. سندمي نفسنا ونهلك إن استمرّينا في المقاومة.

لا نقع في فخّ الروح النجس: نؤمن ونصدّ الله في الوقت نفسه، نعترف به قدّوس الله ونرفض له كلّ تدخّل في حياتنا. نرى أنفسنا أحيانًا تتساكن معًا على شفاهنا كلمات الإيمان وكلمات التجديف والكفر. هذه الازدواجيّة في تعاملنا مع الله هي من الشيطان، تمامًا كما شخصيّة الروح النجس في نصّنا. لاحظوا الازدواجيّة فيه: مَن المتكلّم؟ "نحن" أم "أنا"؟ الجمع أم المفرد؟ تارة يقول: "ما لنا..."، وطورًا "أنا أعرف...". إنّه الخلط غير المنسجم بحدّ ذاته. ليس هناك من شخصيّة مفردة تحترم ذاتها.

بكلمتين فقط...

"**فانتهره يسوع، قال: اخرس واخرج منه**" (آ ٢٥). إنّه أمر لا ليونة فيه. فعلان اثنان فقط قادران وحدهما على حسم المواجهة مع الروح الخبيث: "إخرس... أخرج". وهذا، من جهته، ما عليه إلاّ أن يطيع ويخرج من الرجل بشكل مُخزٍ ودراماتيكيّ: "**فخبطه الروح النجس، وصرخ صرخة شديدة وخرج منه**" (آ ٢٦). لا يحتاج يسوع إلى الكثير من الكلمات والتقاسيم حتّى ينتصر. بكلمتين من فمه خضع العدوّ واندحر. إنّه السلطان نفسه الذي به أمر أربعة رجال كي يتبعوه فأطاعوا (١:١٦-٢٠). في المشهدين طاعة لابن الله: طاعة التلاميذ هناك قادتهم إلى اتّباع المعلّم، وطاعة الروح هنا قادته إلى الهلاك. لا شكّ أنّ التلاميذ، وهذا هو هدف مرقس الرئيسيّ، تلقّنوا من معلّمهم درسًا أوّل شديد الأهمّيّة: كيف يتمّ تخليص إنسان من الروح النجس الكامن فيه، وكيف يتمّ عبور ذلك الإنسان من

الهلاك إلى الخلاص. هم، الرسل، المدعوّون أن يكونوا في المستقبل "صيّادي بشر" (١٧:١)، تعلّموا الآن درسًا كيف يمكن أن "يُصطادَ" الناس من بحر الشرّ حتّى يؤتى بهم إلى برّ الأمان.

من البرّيّة إلى المدينة

في إنجيلَي متّى ولوقا لدينا الانتصار ذاته على إبليس، وفي البداية أيضًا: بعد أن تعمّد من يد يوحنّا، يخرج يسوع إلى البرّيّة وهناك يجرّبه الشيطان، لكنّه يقهره بعدم الاستسلام لرغباته (مت ٤:١-١١؛ لو ٤:١-١٣). عند مرقس، بدل البرّيّة هناك المدينة، بل المجمع قلب المدينة، وإبليس ليس روحًا شاردًا، بل في إنسان من لحم ودم. لهذا، ربّما، لم يركّز مرقس اهتمامه على خبر التجربة في البرّيّة، الذي لا يمتدّ إلاّ على آيتين فقط (١٢:١-١٣)، بل على قهر الشيطان في المجمع. لكلّ هذا رمزيّته ودلالته. من حيث لا ندري، يُملي مرقس علينا درسًا لاهوتيًّا وروحيًّا وحياتيًّا. كيف؟

أوّلاً، لم يعد إبليس بالنسبة له روحًا تائهًا في البراري والصحاري والكهوف، بل نراه يسكن في قلب المدن، بين الناس، وفي بعض الناس، بين البيوت، بل حتّى أحيانًا في بيوت الله. في واقع عالم اليوم، يكفي أن ننظر حولنا لنجد تمامًا ما قاله مرقس وعبّر عنه في خبر: الشرّير موجود، وهو يلبس مئة وجه ووجه. حقده يزرعه أحيانًا في قلبنا نحن، وغضبه على وجوهنا نحن، وشهوته في جسدنا نحن، وكبرياؤه في نفسنا نحن، وكذبه على شفاهنا نحن، وإلحاده في تفكيرنا نحن، وموته في حياتنا نحن... هكذا يتجسّد إبليس في أيّامنا هذه: في البعض منّا، لا بل في أقدس أمكنتنا. إنّ من يظنّ، مثلاً، أنّ الكنيسة تتألّف من ملائكة أطهار ومنزّهين عن كلّ دنس وخطيئة، فهو إنسان بسيط القلب والعقل. فكما أنّ في الكنيسة قدّيسين أطهارًا، هناك أيضًا رجال أشرار، تفوح منهم رائحة الشرّ النتنة بدل أن يكونوا "رائحة المسيح الطيّبة"، كما يقول بولس الرسول (٢كو ١٥:٢).

ثانيًا، وهذا هو المهمّ، لم يعد لهذه القوى الشرّيرة السلطان ذاته على الإنسان. لقد أتى المسيح ليقهرها ويُهلكها. صحيح أنّ في العالم شرًّا، ولكن هناك أيضًا نعمة المسيح كسلاح لنا؛ صحيح أنّ في العالم أناسًا شرّيرين، لكنّ باب الخلاص مفتوح لهم دائمًا والتوبة ممكنة؛ صحيح أنّ في العالم آلامًا مبرّحة وحروبًا وكوارث، لكن هناك أيضًا شخصٌ علّمني كيف أتخطّى هذه الجراح، وكيف أرجو الخير وأنتظر الخلاص والغلبة. إن كان هناك نار، فهناك مطر أيضًا، وإن وُجد شتاء فهناك ربيع خلفه. هكذا يعلّمنا الله أن ننظر إلى العالم بعيونه هو، فتغدو أيّامنا أفضل وتمرّ سنونا "كيوم أمس العابر وكهجعة من الليل" (مز ٤:٩٠).

القسم الثالث: ردّة فعل جديدة تجاه التعليم والمعجزة (آ ٢٧-٢٧)

في القسم الثالث والأخير يضعنا مرقس أمام ردّة فعل ثانية للجمهور الحاضر في المجمع: "**فدهشوا جميعًا حتّى أخذوا يتساءلون: ما هذا؟ إنّه لتعليم جديد يُلقى بسلطان! حتّى الأرواح النجسة يأمرها فتطيعه**" (آ ٢٧). ردّة الفعل هذه موازية لردّة الفعل الأولى التي تأتي في بداية النصّ. في الأخيرة فقط يورد مرقس كلامًا مباشرًا للنّاس.

هويّة محيِّرة

"**ما هذا؟**" (آ ٢٧)، سؤال تعجّبيّ يطال حقيقة ما يجري أمام الأعين، ولا يطال هويّة يسوع بالذات، وإلاّ لكان السؤال: "**من هذا؟**". في طول إنجيل مرقس وعرضه عُرضت هويّة يسوع وطبيعة عمله على الشفاه والألسن:

– من **مرقس** نفسه في أوّل سطر من إنجيله: "بدء بشارة يسوع المسيح" (١:١)؛

– من **الآب** أثناء عماد يسوع: "أنت ابني الحبيب، عنك رضيت" (١١:١)؛ وأثناء التجلّي: "هذا هو ابني الحبيب، فله اسمعوا" (٧:٩)؛

– من **الأرواح النجسة**: " أنا أعرف من أنت: أنت قدّوس الله" (مر ٢٤:١)؛ "وكانت الأرواح النجسة، إذا رأته، ترتمي على قدميه وتصيح: أنت أبن الله" (١١:٣)؛ "ما لي ولك، يا يسوع ابن الله العليّ؟" (٧:٥)؛

– من **التلاميذ**: "من هو هذا حتّى تطيعه الريح والبحر؟" (٤١:٤)؛ "ومن أنا، في قولكم أنتم؟ فأجاب بطرس: أنت المسيح" (٢٩:٨)؛

– من **الجموع**: "فدهش كثير من الذين سمعوه وقالوا: من أين له هذا؟ وما هذه الحكمة التي أعطيها حتّى إنّ المعجزات المبينة تجري عن يديه؟ أليس هذا النجّار ابن مريم" (٢:٦-٣)؛ "وقال آخرون إنّه إيليّا، وقال غيرهم: إنّه نبيّ كسائر الأنبياء" (١٥:٦)؛

– من **أبناء الناصرة**: " أليس هذا النجّار ابن مريم أخا يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان" (٣:٦)؛

– من **أهل يسوع**: "إنّه فاقد الرشد" (مر ٢١:٣)؛

– من **هيرودس**: "هذا يوحنّا الذي قطعتُ أنا رأسه قد قام" (١٦:٦)؛

– من **قيافا**: "أأنت المسيح ابن المبارك؟" (٦١:١٤)؛

– من **قائد المئة**: "كان هذا الرجل ابن الله حقًّا" (٣٩:١٥).

كلّ هذا لم ينقله مرقس ببراءة، لقد قصد من ذلك شيئًا. أعلن رأيه هو في بداية الإنجيل أنّ يسوع هو المسيح (١:١)، ورأي قائد المئة في أواخر الإنجيل أنّ يسوع كان ابن الله حقًّا (٣٩:١٥). تختلف آراء البشر في تحديد شخصيّة يسوع، بل إنّها تتناقض أحيانًا. قلّة هم الذين اعترفوا به وفهموا رسالته. كان للبعض حجر عثرة وللبعض الآخر سبب خلاص.

واليوم أيضًا تتكرّر هذه المواقف المتباينة حيال شخص المعلّم، وينقسم البشر بسببه. منهم من يحبّه حتّى الموت ومنهم من يعاديه حتّى العظم. لكنّ الطريق مفتوح دائمًا أمام من يبحث ويسأل. من سؤال الجمهور هنا حول حدثٍ ما ("ما هذا؟")، إلى سؤال التلاميذ فيما بعد حول الهويّة ("من هذا؟" ٤١:٤) تطوّرٌ في المسيرة، مسيرةِ البحث والتفتيش؛ تطوّر من المعجزة المنظورة إلى الشخص، من العطيّة إلى المعطي.

تعليم وبشارة

"**إنّه لتعليم جديد**" (آ ٢٧). ما هو هذا التعليم؟ إنّه البشرى السارّة، "الإنجيل" الذي سبق ليسوع أن دعا الناس إلى الإيمان به: "توبوا وآمنوا بالبشارة" (١٥:١). من هنا نرى مرقس يدمج بطريقة مدهشة وفريدة من نوعها فعلَين اثنين، غالبًا ما يذكرهما معًا في إنجيله، وهما "بشّر" (60ΔβΦΦT) و"علّم" (*4*ςΦ6T). مهمّة يسوع الأساسيّة وهدف مجيئه إلى العالم تعليم الناس. يقول يسوع بعد قليل لتلاميذه: "لنذهب إلى مكان آخر، إلى القرى المجاورة، لأبشّر فيها أيضًا، فإنّي لهذا خرجت" (٣٨:١). قليل ما أراد يسوع صنعَ العجائب، فغالبًا ما أُرغم على فعلها. لم يُرد أن يرى الناس فيه مجرّد صانع عجائب. العجيبة تأتي دائمًا بعد التعليم كي تثبّته. يسوع أوّلاً وأخيرًا هو الربّ والمعلّم. يقول لتلاميذه في إنجيل يوحنّا: "أنتم تدعونني: المعلّم والربّ. وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا" (يو ١٣:١٣).

في هذا الكلام وعظ لنا. نركض نحن عادةً وراء اللاّمألوف وغير الطبيعيّ، ونلهف لرؤية المعجزات والخوارق: قدّيس يظهر، أيقونة ترشح، قبر يشعّ، تمثال يقذف البخّور، عذراء تبكي... كلّ ذلك رائع، لكنّه ليس أوّليًّا ورئيسيًّا في إيماننا. الأهمّ هو موقف القلب.

كلمة الله لا تُقيَّد

لا يمكن أن يُحبس يسوع داخل نطاق ضيّق. فتعليمه يتخطّى المجمع اليهوديّ، يتخطّى كفرناحوم والجليل. في بداية النصّ، دخل يسوع كفرناحوم ومجمعها، وفي ختامه "**ذاع ذكره في كلّ مكان من ناحية الجليل**" (آ ٢٨). إنتصاره على الروح الخبيث انتشر بسرعة بين الناس وتناقلته الألسن، والتعليم الجديد هبّت رياحه مدوّية في الجليل. بالتأكيد سعى أهل كفرناحوم أن يحتفظوا بيسوع في قريتهم كصانعِ عجائب، لكنّه رفض ذلك. فتّشوا عنه بعدما ترك مدينتهم وأرسلوا إليه سمعان وأصحابه يبحثون

عنه، ولما وجدوه قالوا له: "جميع الناس يطلبونك" (١:٣٧). لوقا قالها بصراحة أكثر ونقل جيّدًا مشاعر الكفرناحوميّين: "سعت إليه الجموع تطلبه فأدركته وحاولوا أن يمسكوا به لئلاّ يذهب عنهم، فقال لهم: يجب عليّ أن أبشّر سائر المدن أيضًا بملكوت الله، فإنّي لهذا أُرسلتُ" (لو ٤:٤٢-٤٣). وفي نصّنا أيضًا دلائل، ولو مستترة، عن رغبة يسوع، وبالتالي عن رغبة مرقس الإنجيليّ ومن ورائه الكنيسة، بعدم الانحباس بنطاق المجمع اليهوديّ. ها هو يقول: "وكان في **مجمعهم**" (آ ٢٣)، ويعود ويكرّرها في آ ٣٩ ("وسار في الجليل كلّه يبشّر في **مجامعهم** ويطرد الشياطين"). في الضمير المتّصل "هم" نشمّ رائحة الانفصال بين الكنيسة المسيحيّة والمجمع اليهوديّ.

رسالة يسوع، عند مرقس، تتخطّى المجمع وجمهوره الضيّق. من هنا نرى أنّ المكان المثاليّ لإلقاء التعليم هو شاطئ البحر وليس المجمع. الشاطئ للجميع ومجاله أوسع. طالما واجه يسوع الصعوبات والمشاكل عندما كان يعلّم في المجمع. في نصّنا، يواجه رجلاً فيه روح نجس؛ في ٣:٦، يواجه الكتبة والفرّيسيّين بعدما شفى في يوم سبت رجلاً يده شلاّء؛ في ٦:١-٦، لم يلقَ يسوع الترحاب المفروض في مجمع الناصرة مسقط رأسه؛ في ١٣:٩، يُنبئ مسبقًا تلاميذه بأنّهم سيسلمون إلى المجالس والمجامع ويُجلدون...

خلاصة القول، "إنّ كلمة الله لا تقيّد" كما يقول بولس الرسول (٢تي ٢:٩)، لا بشعب واحد ولا بأرض واحدة، ولا بفئة واحدة وجنس واحد ولون واحد... الله حرّيّة، يريد أنّ "جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحقّ يبلغون" (١تي ٢:٤).

في **الختام**، نقول: في ملكوت المسيح لا غلبة لإبليس وأعوانه. أوّل ظهور علنيّ ليسوع وأوّل تجسيد لملكوت الله الذي نادى به يسوع هو إنكار هيبة إبليس وملكوته. ليس عبثًا أبدًا أن عبّر مرقس عن هذه الغلبة بصيغة الجمع وعلى فم الروح النجس بالذّات: "ما **لنا** ولك يا يسوع الناصريّ؟ أجئتَ **لتهلكنا؟**". اسم يسوع، الذي لفظه الروح على شفتيه النجستين محاولاً السيطرة على خصمه، بهذا الاسم نفسه تُطرد الشياطين وتقهر.

ما أروعه مرقس في استراتجيّة تأليفه الإنجيل، يبدأه وينهيه بطردٍ لإبليس: في البداية، هنا، بواسطة يسوع، وفي الختام بواسطة التلاميذ من بعده: "باسمي تطردون الشياطين" (١٦:١٧). هكذا يضمّن مرقس إنجيله بالانتصار ذاته. لكنّ الأوّل له دائمًا مكانة أساسيّة. فمقدّمة يوحنّا، مثلاً، تسيطر على إنجيله كلّه، وتنفحه بروعتها ولاهوتها الساميّ؛ كذلك في إنجيل لوقا، حيث يضع يسوع نصب عينيه هدف رسالته وبرنامجها وذلك منذ البداية (لو ٤:١٨-١٩). كذلك عند مرقس، فطرد الأرواح النجسة هو أولى أعاجيب يسوع، وهي ترخي بظلالها على الإنجيل كلّه. لم يعشق إنجيليّ سرد روايات طرد الأرواح

كما عشقه مرقس. والشاهد على ذلك فعل "طرد" ($f6\exists\varsigma88T$)، الذي يذكره مرقس ١٣ مرّة من أصل ٣٣ مرّة في كلّ العهد الجديد.

هكذا كلّ مرّة تُعلن البشارة يُهزم الشيطان، كلّ مرّة تعلّم الكنيسة تعليمًا جديدًا بسلطان تطيعها الأرواح كما أطاعت يومًا يسوع.